المدارس الاسلامية في العصر العباسي وأثرها في تطوير التعليم

الدكتور حسين أمين
جامعة بغداد - كلية الآداب

ان من ابرز مايميز الحضارة العربية الاسلامية في العصر العباسي هو ذلك الاهتمام الكبير بالجانب الثقافي وما بلغته المعرفة من تطور كبير وما اصاب التعليم من ازدهار واسع . وانشاء المدارس في الاسلام من المنجزات العظيمة التي حققت الاهداف العلمية والتربوية وقدمت الخدمات الجليلة للانسانية جمعاء .

وتشير المؤشرات التاريخية ان مدينة نيسابور كانت رائدة المدن الاسلامية في انشاء المدارس ، فقد شيد أهلها مدرسة للفقيه الشافعي ابي اسحق الاسفراييني المتوفي سنة ثماني عشرة واربعمائة للهجرة (1) . كما تشير المصادر ان مدرسة اخرى انشئت في تلك المدينة للعالم ابي بكر البيهقي المتوفي سنة ثمان وخمسين واربعمائة للهجرة (2) .

نلاحظ ان اهتمام أهل نيسابور كان منصبا على العناية بالمذهب الشافعي ودراسة أصوله ومن هنا على ما اعتقد كانت سببية انشاء المدارس فيها كمعاهد للدرس والعلم ، ونيسابور كانت مركزا من مراكز أهل السنة والشافعية بخاصة ، وبرزت فيها طائفة من كبار اصحاب الحديث واعلام الفقهاء كالبيهقي والحاكم النيسابوري . فالحركة المدرسية في الاسلام على ما ارجح نشأت في كنف الفقهاء الشافعية ورعايتهم وذلك ان الشافعية عندما رأوا ضعف مركزهم وانصراف الحكام في هذا القسم الشرقي من العالم الاسلامي عنهم واعتمادهم في نفس الوقت على الفقهاء الحنفية ببغداد ، بدأوا يعملون لدراسة وتدريس المذهب الشافعي واصول فقهه والدعوة له فنشأت بهذا حركة هدفها الاول العناية بالمذهب الشافعي واصول ذلك المذهب لم تكن الدولة تعترف به وتتبناه في تلك المناطق .

1) ابن خلكان : وفيات الاعين ج ا ص 9

2) المرجع السابق ج ا ص 57 ـ المقريزي ـ الخطط ج 2 ص 363

ان انشاء المدارس في الاسلام يظهر انها مبادرات شعبية حققت للناس طموحاتهم في ان تكون تلك الامكنة مراكز علمية تدرس فيها مختلف العلوم والاداب . وهي في عهدها الاول وان لم تستكمل شروط المدرسة فقد تكونت من بيت له رحبة واسعة فيه بعض الغرف للدرس ، وقد تختلف المدرسة من حيث السعة ومن حيث الوقوف التي توقف للصرف عليها ، وكذلك من حيث الشيوخ الذين يدرسون بها ومكانتهم العلمية واشتهارهم .

وفي سنة 459 هـ شيد الوزير السلجوقي نظام الملك المدرسة النظامية في الجانب الشرقي من بغداد . والحق ان المدرسة النظامية تعتبر من اقدم مدارس بغداد واشهرها ، وقد انشئت لتدريس الفقه الشافعي وشرط الواقف ان يكون المدرس بها والواعظ ومتولي الكتب من الشافعية اصلا وفرعا (3) . وكان نظام الملك قد امر بانشاء عدة مدارس في العالم الاسلامي اصبحت نموذجا للمدارس الجديدة وغدا نظام الملك نفسه قدوة حسنة يحتذى به كبار رجال الدولة من الوزراء والامراء في انشاء المدارس ، كما ان اهمية عمل نظام الملك ترجع الى كونه بداية عصر جديد من الازدهار للمدرسة اذ اصبح السلاطين ورجال الطبقة العالية مولعين بتأسيس المدارس كما ان تكوين المدرسة على الوضع الذي رسمه نظام الملك وما الحقه من اقسام داخلية لاقامة الطلاب اصبح فيما بعد نموذجا يحتذى به في سائر المدارس التي انشئت في العصور التالية (4) .

ويبدو ان نظام الملك كان اول من خصص الرواتب والاجور للمدرسين وكل العاملين في مدارسه كما تكفل باعاشة الطلبة وتحمل جميع مصروفاتهم، ومن الجدير بالذكر ان علماء ماوراء النهر ، اصابهم الهم والحزن عندما كوتبوا ببناء المدارس ببغداد والتنظيمات التي استحدثها نظام الملك فيها، فاقاموا مأتم العلم وقالوا : كان يشتغل به ارباب الهمم العلية والانفس الزكية الذين يقصدون العلم لشرفه والكمال به ، فياتون علماء ينتفع بهم وبعلمهم . واذا صار عليه اجرة تدانى اليه الاخساء وارباب الكسل (5) .

ان الدافع على مارجحه من تأسيس المدارس النظامية كان مذهبيا وسياسيا . لقد كان نظام الملك شافعيا اشعريا حريصا على مذهبه ، وعاصرت نظام الملك اراء وافكار متباينة مختلفة كانت منتشرة في العالم الاسلامي كالمعتزلة والباطنية وبقايا القرامطة وغيرهم من اصحاب الملل

---

3) ابن الجوزي : المنتظم ج 9 ص 6 .

4) ENCYCLOPEADIA OF ISLAM : Art Masjid

5) حاجي خليفة كشف الظنون ج 1 ص 53 .

والنحل وكان نظام الملك يرمي بدرجة كبيرة الى توجيه الرعية وجهة تخدم مصلحة الدولة وتبعث على الاستقرار والسكينة والامن ، لذا كان هم نظام الملك التأكيد في مواضيع الدراسة على افهام الناس عامة ومنتسبي النظامية خاصة أصول الدين الصحيحة ، ولما كان نظام الملك شافعيا ، كان يرى ان يدرس الفقه والاصول المستمدة من افكار وآراء الشافعية . وكان من شروط النظامية ان يكون المدرس من الشافعية اصلا وفرعا .

ولما كانت المدارس الحكومية هي في الحقيقة امتداد لحركة التعليم في المساجد لذا نرى ان التعليم في بداية امره في مدارس نظام الملك كان قائما على العلوم الدينية واللغوية ، واعتقد ان هذا انما كان استجابة لروح العصر الذي شيدت لاجله المدرسة النظامية ، وقد اعتمدت النظامية في تدريس ونشر وتطبيق الفقه الشافعي واعتمت بتدريس القرآن والحديث والادب واللغة . ثم اخذت هذه المدرسة تتوسع يوما بعد يوم واخذت العلوم الرياضية طريقها الى هذه المدرسة .

ونلاحظ في المدرسة النظامية نوعا من الاختصاص فنجد مثلا ابازكريا التبريزي المتوفى سنة 502 هـ استاذا للفقه والادب في المدرسة (6) ثم اصبح علي بن محمد الفصيحي المتوفى سنة 516 هـ صاحب ذلك الكرسي بعد وفاة التبريزي (7) .

وكان ابو المبارك الملقب بالوجيه النحوي دقنقيا حنفيا ولما شغر منصب تدريس النحو بالمدرسة النظامية وشرط الواقف ، ان لايفوض الا الى شافعي المذهب فانتقل ابو المبارك الى مذهب الشافعي وتولاه (8) . اي تولى تدريس النحو في المدرسة النظامية ومن هذا نستدل على ان بعض الاساتذة كانوا ينتقلون من مذهب الى مذهب في سبيل الحصول على منصب رسمي . كما يدل على اقتصار الشافعية لوظائف المدرسة النظامية، وهناك اساتذة اختصوا في تدريس الفقه والحديث والاصول وعلم الكلام والتفسير وغيرها من العلوم .

أما كيفية التدريس في النظامية . فان ابن جبير اعطانا صورة واضحة لها حين زار المدرسة اواخر القرن السادس الهجري وحضر مجلس وعظ في الخامس من صفر سنة 580 هـ ووصف مجالس العلماء انها مجالس علم

---

6) ياقوت : معجم الادباء ج 19 ص 27

7) ياقوت : معجم الادباء ج 15 ص 67

8) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج 1 ص 562

ووعظ ، وقال عنهم ان لهم طريقة مباركة ملتزمة (9) . وكان التدريس مرتبطا على الاكثر باوقات الصلاة ، خاصة بعد صلاة العصر ، بعد ان يتفرغ اكثر الناس من أعمالهم ، ـ اقصد هنا دروس الوعظ لعامة الناس ـ. يقول ابن جبير : «وأول من شاهدنا مجلسه منهم الشيخ الامام رضي الدين القزويني رئيس الشافعية وفقيه النظامية والمشار اليه بالتقديم في العلوم الاصولية . حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة اثر صلاة العصر من يوم الجمعه (10) . وطبيعي ان المدرس كان يجلس على مكان عال وهو متطيلس (اي يرتدي الطيلسان) والطريقة المتبعة ان الطلاب يجلسون امامه على شكل نصف حلقة ، ويبدأ الطلاب بالقراءة . وكانوا يقرأون بتلاحين معجبة ونغمات محرجة مطربة (11) (ثم يبدأ الشيخ بتفسير الدرس) ويتصرف في أفانين العلوم من تفسير كتاب الله عز وجل وايراد حديث رسوله عليه الصلاة والسلام والتكلم على معانيه (12) .

وتعددت المدارس في العالم الاسلامي وتنوعت في دراساتها وتخصصاتها وصارت بعض الموضوعات تدخل التدريس في قاعاتها كالطب والصيدلة وعلم الفلك والحساب والجبر والهندسة وغيرها من المواضيع . ولعل من أبرز واشهر المدارس التي انشئت في أواخر الدولة العباسية المدرسة المستنصرية والتي امر ببنائها الخليفة المستنصر بالله العباسي وافتتحت للتدريس في سنة 30 هـ . والمدرسة المستنصرية لها اهمية خاصة لانها تعتبر خطوة جديدة في تطور تاريخ المدارس في العالم الاسلامي ، اذ المعروف ان المدارس السابقة كانت كل واحدة منها تبنى لدراسة مذهب واحد بعينه، ولكن هذه المدرسة هي اول مدرسة عرفها العالم الاسلامي كله تشيد لتدريس المذاهب الاربعة ، ويبدو ان الخليفة المستنصر استهدف من عمله ذلك جعل مدرسته محط انظار أهل السنة جميعا فلايقف شرط مذهبي امام الطالب كما جعل نظام الملك من شروط القبول في النظامية ان يكون الطالب شافعيا اصلا وفرعا (13) .

وهذا يعني ان عامة الناس سواء كانوا من الحنفية او الشافعية او المالكية او الحنابلة لهم حق الدخول في المدرسة المستنصرية وطبيعي فان

---

9) ابن جبير : الرحلة ص 174

10) ابن جبير : الرحلة ص 174

11) المصدر السابق

12) المصدر السابق

13) ابن الجوزي ـ المنتظم ج 9 ص 66

الخليفة المستنصر وهو الذي انشأ المدرسة فمن غير المعقول ان يخصصها لطائفة دون اخرى .

ومن الجدير بالذكر ان بناء المدرسة المستنصرية يعتبر من أجمل الاثار العباسية وسط مدينة بغداد في الجانب الشرقي منها والبناء يمثل نوعا من الطراز العباسي الذي يمتاز باستخدام الاجر والتأثر بالاساليب المعمارية الساسانية وتفضيل الاكتاف او الدعامات على الاعمدة في حمل البوائك كما يمتاز بالاقبال على استخدام الجص في كسوة العمائر (14) .

ولاول مرة في تاريخ المدارس الاسلامية يلحق الخليفة بالمدرسة اربعة معاهد ، معهد لتدريس القرآن وآخر للحديث النبوي الشريف ومدرسة للطب واخرى للصيدلية . وانخرط بالمدرسة الطلبة من جميع انحاء العالم الاسلامي .

وعنيت المدرسة المستنصرية كما عنيت المدارس الاسلامية المنتشرة من مشرق الخلافة الى مغربها بالمكتبات الفخمة واغمارها بالكتب النفيسة، وكانت المكتبة عصب المدرسة ، وكانت الكتب تبوب وترتب حسب فنونها ليسهل على المطالعين تناولها واذا اراد احدهم نسخ بعض مخطوطاتها فان الموظفين كانوا يمدونه بما يحتاج اليه من الاقلام والورق (15) ، وكان للمكتبة خازن ومشرف ومناول . واعتقد ان اعظم مكتبة كانت في مدارس بغداد ايام العباسيين هي مكتبة المدرسة المستنصرية فقد ذكر ابن عنبة ان مكتبة المستنصرية كانت تحوي ثمانين الف مجلدا (16) .

ان المدارس الاسلامية في العصر العباسي ادت دورها البناء في الحفاظ على التراث العربي الاسلامي وتطوير وازدهار الدراسات الدينية والادبية والعلمية وقدمت خدمات جليلة للثقافة الانسانية .

ومما لاشك فيه ان المدارس الاسلامية في أول نشأتها بذلت عناية فائقة في دراسة العلوم الدينية وكان لهذا الامر الاثر الكبير في تطوير وتعميق المواضيع الدينية كعلوم القرآن والحديث والفقه ، وقد ساعد هذا على تفهم الناس لتلك المواضيع وظهور الدراسات العلمية والتي تميزت بالمتانة والوضوح وبالجدية واصالة البحث . ثم دخلت المواضيع الادبية كاللغة والنحو والصرف والعروض والاخبار والادب الى المدارس الاسلامية وكانت العناية فائقة بتطوير تلك الدراسات وبذل مجهودات

---

14) زكي حسن ـ فنون الاسلام ص 54 .

15) لسترانج ـ بغداد في عهد الخلافة العباسية ص 226 .

16) ابن عنبة ـ عمدة الطالب ص 195 .

قيمة من اجل خدمة التراث الادبي العربي وتقديم البحوث القيمة في هذا المجال . كما عنيت المدارس بالعلوم الرياضية وهي تشمل الحساب والجبر والهندسة والمساحة ، وبالعلوم العقلية التي تضمم المنطق وعلم الكلام الحيوان ، وقد ارتقى مناصب التدريس لهذه المواضيع نخبة من علماء العرب والمسلمين وبذلوا مجهودات قيمة من اجل دراسة تلك العلوم وتوسيع مدارك الطلبة وتقديم البحوث القيمة في مجالات العلم المختلفة مما اصبحت حصيلة ممتازة في الميدان العلمي .

والمدارس الاسلامية التي عنيت بالدراسات الدينية والادبية والعلمية قامت بتخريج اعداد كبيرة من الطلاب الذين انتشروا في العالم الاسلامي وصاروا ينقلون ما تعلموه في تلك المدارس وارتقى العديد من خريجي تلك المدارس الوظائف السامية في مختلف الامصار الاسلامية .

ان المدارس الاسلامية والتي على ما اعتقد كان هدفها واحدا هو العناية بالمواضيع الدينية اساسا ومن ثم الاهتمام بالدراسات الادبية والعلمية ، ان هذه المدارس ساعدت على اشاعة العلم والمعرفة بين الناس عامة وربط المسلمين برباط الثقافة ، وان اتاحة الفرصة للمسلمين القبول في اي مدرسة في بغداد أو البصرة أو القاهرة أو تونس أو الرباط او اصفهان كان له الاثر المحمود في توحيد الفكر الاسلامي وزيادة الترابط الانساني مما يساعد على اتاحة الفرص للعراقي والمصري والسوري والمغربي والفارسي والتركي ان يتعارفوا وان تتماس العقول وتحتك الافكار وتنصهر جميعها في بوتقة العلم لتبرز افكارا مدروسة واراء مجدية في حقول الادب والعلم . وعدا على ما اعتقد من ابرز ما قدمته تلك المدارس في ذلك العصر من خدمة للانسانية ولتراثها الخالد ، كما ساعد ذلك اللقاء بين البلدان المختلفة ، في تعرفهم على عادات وتقاليد بعضهم البعض وانتشار اللغة العربية والتي أصبحت لغة الدراسة والثقافة والعلم . مما ادى الى الاهتمام بهذه اللغة وتطويرها وازدهارها .

ان الانظمة الحية المتطورة والتي جاءت بها المدارس الاسلامية كان لها الاثر المحمود في تطوير الدراسات في العالم الاسلامي بخاصة والعالم بعامة ، ونلاحظ ان النظام التعليمي في المدارس الاسلامية ونأخذ المدرسة النظامية على سبيل المثال انها عنيت بالتنظيم الذي يمكن ان نسميه بالجامعي ، فالهيئة التدريسية فيها تتكون من المدرسين والمعيدين ، ويحدد القلقشندي وظيفة المدرس بانه الذي يتصدى لتدريس العلوم

الشرعية من التفسير والحديث واللغة والنحو والتصريف ونحو ذلك (17)
وكان تعيين المدرس في اول تأسيس النظامية من صلاحية الوزير نظـــام الملك كما كان ذلك عندما عين نظام الملك ، ابا اسحق الشيرازي للتدريس في نظامية بغداد (18) وكما عين هو الامـام الغزالي للتدريس في المدرسة ذاتها بعد ذلك (19) . وان المدرسة كانت حريصة على التخصص العلمي ويختار المدرس من الذين عرفوا بالعلمية الواسعة والشهرة في تخصصـه الـدقيـق .

اما وظيفة المعيد ، فوظيفه حضارية تؤكد اهمة التعليم وتطوره عند المسلمين ومن المعتقد ان هذه الوظيفة ، ظهرت في القرن الخامس الهجري وذلك لعدم ورود مثل هذه الوظيفة قبل هذا التاريخ ، وارجح ان هذه الوظيفة ظهرت رسمي على علاقة وثيقه بوظيفة المدرس بعد تأسيس النظاميـة ، والطريف في هذه الوظيفة ومحفزاتها انها جعلت الطلبة في المدرسة النظامية يتنافسون تنافسا علميا من اجل الحصول على الدرجات العلمية الممتازة التي تؤهلهم لوظيفة المعيد ، وهذا بالطبع سيؤدي الى رفع المستوى العلمي لطلاب المدرسة الاسلامية والى ابتكار المواضيع العلمية المختلفة وهناك اسمـاء كثيرة من الذين كانوا طلبة في النظامية او المستنصرية عينوا معيديـن لكفاءاتهم وقدراتهم العلمية الممتازة .

كما ان المعيد اذا ما اثبت جدارة واهلية واصالة بحث رقي الى درجة مدرس وهذا عامل آخر مهم تساعد على تركيز الدراسات وتعميقها كما عمل على تطوير العلوم الاسلامية كافـــة .

وكانت مجالس المدارس الاسلامية ومكتباتها مراكز لقاء المسلميـن وتلقي العلوم والمواعظ والارشادات الدينية مما يقوي الرابطة الدينيـة ويعمل على وحدة الفكر الاسلامي .
ان ابنية المدارس الاسلامية والتي تبارى في اظهار جمالها ورائـع رونقها الخلفاء والسلاطين والامراء والوزراء والموسرون كانت امثلـة رائعة للفن العربي الاسلامي . فالمدرسة المستنصرية ببغداد والتي انشئت

---

17) القلقشندي ـ صبح الاعشى ج 5 ص 464 .
18) ابن الاثير ـ الكامل ج 8 ص 105 .
19) ابن خلكان ج 1 ص 587 .

سنة 630 هـ اتفق المؤرخون المعاصرون لها انه ما بني على وجه الارض احسن منها (20) . وانها جاءت في نهاية الحسن (21) ، وصفها غريب وحسن ترتيبها عجيب شامخة الى عنان السماء (22) ، وهي اعظم من ان توصف وشهرتها تغني عن وصفها (23) . وحقا فان هذه المدرسة العربية الاسلامية هي اليوم من اجمل الاثار التي خلفها العباسيون ببغداد تشير الى سلامة الذوق الفني وجمال الهندسة وتعبر عن مجد بني العباس الزاهر . وهي اضافة الى جمال بنائها تمتاز بالزخارف الرائعة التي تتكون من قطع من الآجر المهندسة باشكال وحجوم مختلفة محفورة على شكل زخارف هندسية ونباتية وتتفاوت في الحجم والعمق . وهذه القطع بعد ان تتم زخرفتها على انفراد تجمع بعضها الى بعض وتلصق على الجص في واجهة الجدار او السقف المراد زخرفته كما امتازت بالكتابات العربية الفريدة والتي مازالت واضحة مقروءة حتى عصرنا هذا والتي تدل بوضوح على سلامة الذوق وروعة الخط وقدرة الخطاطين البغداديين وقتذاك

ان المدارس الاسلامية والتي برزت بشكلها المنظم في النصف الثاني من القرن الخامس وامتدت من المشرق وحتى المغرب كانت تطورا كبيرا في الحياة الثقافية والتعليمية وادت رسالتها من اجل تطوير وازدهار التعليم في العالم الاسلامي كما كان لها دورها البارز في تنشيط الاداب والعلوم وساهمت باخلاص في توحيد الفكر الاسلامي والحفاظ على التراث الثقافي والاهتمام باصول البحث والعناية بالفرد من الناحية الاجتماعية كما كان انشاء المدارس مساهمة فعالة وبناءة في رقي البناء واظهار روعة العمارة الاسلامية باساليبها الجميلة .

20) القرماني ـ اخبار الدول ص 180
21) مجهول ـ انسان العيون ورقة 249 مخطوط
22) الاربلي ـ خلاصة الذهب المسبوك ص 212
23) ابن الطقطقي ـ الفخري ص 242